46 - ـ فصل : الانقطاع إلى ا .

كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريف الزهاد بإدامة الصوم و الصلاة .

و حببت إلي الخلوة فكنت أجد قلبا طيبا و كانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة و تبادر الوقت في اغتنام الطاعات .

و لى نوع أنس و حلاوة مناجاة ! ! .

فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي فأمالني إليه فمال الطبع ففقدت تلك الحلاوة .

ثم استمالني آخر فكنت أتقي مخالطته و مطاعمه لخوف الشبهات و كانت حالتي قريبة .

ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح فعدم ما كنت أجد من استنارة و سكينة .

و صارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله .

فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس فيتوبون و يصلحون و أخرج مفلسا فيما بيني و بين حالي .

و كثر ضجيجي من مرضي و عجزت عن طب نفسي فلجأت إلى قبور الصالحين و توسلت في صلاحي فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهةمني ورد قلبي علي بعد نفور مني وأراني عيب ما كنت أوثره .

فأفقت من مرض غفلتي ! و قلت في مناجاة خلوتي : سيدي كيف أقدر على شكرك ؟ و بأي لسان أنطق بمدحك ؟ إذ لم تؤاخذني على غفلتي و نبهتني من رقدتي و أصلحت حالي على كره من طبعي .

فما أربحني فيما سلب مني إذ كانت ثمرته اللجأ إليك ! .

و ما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي علىالخلوة بك .

و ما أغناني إذ أفقرتني إليك و ما آنسني إذ أوحشتني من خلقك .

آه على زمان ضاع في غير خدمتك ! أسفا لوقت مضى في غير طاعتك .

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طول الليل .

و إذا انسلخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم .

و ما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض .

فالآن قد هبت نسائم العافية فأحسست بالألم فستدللت على الصحة فيا عظيم الإنعام تمم لي العافية .

آه من سكير لم يعلم قدر عربدته إلا في و قت الإفاقة ؟ .

لقد فتقت ما يصعب رتقه فوا أسفا على بضاعة ضاعت و على ملاح تعب في موج الشمال مصاعدا مدة ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول .

يا من يقرأ تحذيري من التخطيط فإني ـ و إن كنت خنت نفسي بالفعل ـ نصيح لإخوتي بالقول احذروا إخواني من الترخص فيما لايؤمن فساده .

فإن الشيطان يزين في أول مرتبة ثم يجر إلي النجاح فتلمحوا المآل و افهموا الحال .

و ربما أراكم الغاية الصالحة و كان في الطريق إليها نوع مخالفة فيكفي الإعتبار في تلك الحال بأبيكم { هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى } .

إنما تأمل آدم الغاية و هي الخلد و لكنه غلط في الطريق و هذا أعجب مصايد إبليس التي يصيد بها العلماء .

يتأولون لقوالب المصالح فيستعجلون ضرر المفاسد مثاله أن يقول للعالم : ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم فيستعجل الداخل رؤية المنكرات و يتزلزل دينه .

وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم .

فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد فإنها خفية .

و أسلم ما للجان العزلة خصوصا في زمان قد مات فيه المعروف و عاش المنكر و لم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة .

فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز و لم يقدر على جذبهم مما هم فيه .

ثم من تأمل حال العلماء الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرطة .

فليس إلا العزلة عن الخلق و الإعراض عن كل تأويل فاسد في المخالطة و لأن أنفع نفسي وحدي خير لي من أن أنفع غيري و اتضرر .

فالحذر الحذر من خوادع التأويلات و فواسد الفتاوى و الصبر الصبر على ما توجبه العزلة فإنه إن انفردت بمولاك فتح لك باب معرفته فهان كل صعب و طاب كل مر و تيسر كل عسر و حصلت كل مطلوب .

و ا الموفق بفضله و لا حول و لا قوة إلا به